الفصل الثالث

محمد إقبال والعالم العربي

محمد إقبال والعالم العربي

بواعث اهتمام إقبال بالعالم العربي:

لماذا يهتم إقبال بالعالم العربي، وواقعه، وآماله وآلامه؟

هذا السؤال يلقيه من لا يعرف إيمان إقبال بالإسلام ونبي الإسلام وحبه العميق لصحابته الكرام، ولحملة الرسالة الإسلامية الأوائل. يقول إقبال وهو يخاطب جامع قرطبة عام ١٩٣٥م:

«انظر أيها المسجد إلى هذا الهندي الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ومهد العروبة، ونشأ بين الكفار وعباد الأصنام كيف عمر قلبه الحب والحنان؟! وكيف فاض قلبه بالصلاة على نبي الرحمة، الذي يرجع ولسانه إليه الفضل في وجودك؟! كيف ملكه؟! وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيد والإيمان؟!»[١].

وإقبال عندما يهتم بالعالم العربي يهتم به لأنه أرض الإسلام ومهبط الوحي وأرض الأنبياء والمرسلين. ويصدق عليه قول الثعالبي في كتابه «فقه اللغة وسر العربية»: «إن من أحب الله أحب رسول الله ﷺ، ومن أحب النبي أحب لغة العرب التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، والإقبال على تفهم العربية من الديانة. إذ هي أداة التعلم ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد»[٢].

---

(١) روائع إقبال – للندوي – ص ١٢٥.

(٢) فقه اللغة وسر العربية – للثعالبي – ص ٢، دار مكتبة الحياة ببيروت، لبنان (أبو منصور الثعالبي – توفي سنة ٤٢٠هـ)

ولهذا السبب درس إقبال العربية، ودرَّس بها، وكم كان يتمنى لو يستطيع أن ينظم الشعر بلغة الضاد، حتى يخاطب العرب بلسان يفهمونه ويدركون أفكاره وفلسفته[١].

ويرتبط إقبال بالعالم العربي المسلم برباط العقيدة التي هي العروة الوثقى. ويعبر إقبال عن هذه الصلة المتينة بالعالم العربي في صورة جميلة فيقول في قصيدة «شكوى»[٢]:

أنا أعجميُّ الدنِّ لكنْ خمرتي صُنْعُ الحجازِ وكرمِها الفينانِ

إن كانَ لي نَغَمُ الهنودِ ولحنُهُمْ لكنَّ هذا الصوتَ من عدنانِ

ويتغنى إقبال بأرض الحجاز، منبت الوحي، وأرض البطولات، فيقول في قصيدة «شكوى»[٣] مبيناً أنها وطن كل مسلم على أرض المعمورة، وإليها يحن قلب كل مؤمن:

أشواقُنا نحو الحجاز تطلّعَتْ كحنينِ مغتربٍ إلى الأوطانِ

إن الطيورَ وإن قصصْتَ جناحها تسمو بفطرتِها إلى الطيرانِ

لقد عاش محمد إقبال شاعر الإسلام – مدة حياته – في حب النبي ﷺ، والشوق إلى مدينته، وتغنى بها شعره الخالد، ولقد طفح

---

(١) لقد يسر الله لإقبال من ينظم شعره بالعربية مثل الدكتور عبد الوهاب عزام الذي ترجم أكثر دواوين إقبال إلى العربية، والشيخ أبو الحسن الندوي الذي ترجم شعر إقبال نثراً، ويعد نظم الصاوي الشعلان لشعر إقبال من أروع من نظم من العرب.

(٢) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي للشعلان والأعظمي – ص ١١٧.

(٣) المرجع السابق – ص ١١٦.

الكأس في آخر حياته، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه وانهمرت الدموع، ولم يُقَدَّر له الحج، وزيارة الرسول ﷺ بجمسه الضعيف، الذي كان من زمان يعاني من الأمراض والأسقام، لكنه رحل إلى الحجاز بخياله القوي، وشعره الخصب العذب وقلبه الولوع الحنون، وحلّق في أجواء الحجاز، وتحدث إلى الرسول الأعظم محمد ﷺ بما شاء قلبه وحبه.

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة وقد أربى على الستين ووهنت قواه، يقول إقبال: «لقد توجهت إلى المدينة رغم شيبي وكبر سني أغني وأنشد الأبيات في سرور وحنين، ولا تعجب فإن الطائر يطير في الصحراء طول نهاره، فإذا أدبر النهار وأقبل الليل رفرف بجناحيه وقصد وكره ليأوي إليه ويبيت فيه»[١].

ويبقى محمد إقبال يشتاق إلى أرض الحجاز، حتى الدقائق الأخيرة من حياته، فينشد:

نغماتٌ مضينَ لي هل تعودُ ونسيمٌ من الحجاز سعيدُ

آذنتْ عيشتي بِوَشْكِ رحيلٍ هل لعلمِ الأسرارِ قلبٌ جديدُ[٢]

ويوجه إقبال كلماته الرائعة إلى الأمة العربية في قصيدة من أبدع قصائده، يبين فيها فضلها في حمل الرسالة الإسلامية، وكتابة تاريخ جديد، وإنقاذ الإنسانية إلى بر الأمان والسلامة، ثم يهيب بها إلى حمل راية التوحيد مرة ثانية، والعودة إلى أيام مجدها وسؤددها على العالم.

---

(١) روائع إقبال للندوي – ص ١٧٣ – ١٧٧.

(٢) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي (مرجع سابق) – ص ١٩.

يقول إقبال في ديوانه: «ماذا ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق؟»

«أيتها الأمة العربية التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود! من الذي سمع العالم منه نداءَ: «لا قيصر ولا كسرى»[١] لأول مرة في التاريخ، ومن الذي أكرمه الله بالسبق إلى قراءة القرآن؟.

من الذي أطلعه الله على سر التوحيد، فنادى بأعلى صوته: لا إله إلا الله، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم، هل العلم والحكمة إلا فُتات مائدتكم؟ وهل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (ال عمران:١٠٣) إلا وصف حالكم؟

أيها العرب قد منَّ الله عليكم إذ جعلكم مثل السيف البتار أو أحدّ منه. وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصحراء، تركبون عليها وتظعنون فيها، ثم انعكست الآية، فسخر لكم المقادير، فضلاً عن الإبل، فأصبحتم من مالكي أعنتها، فلو أقسمتم على الله لأبركم.

وهناك دوّت تكبيراتكم وصلواتكم، وزمزمت جلبة حروبكم ومغازيكم، بين الخافقين، فارتج بها ما بين الشرق والغرب، فما أحسن تلك المغامرات! وما أجمل تلك الغزوات![٢].

وفي ديوان إقبال الأخير "أرمغان حجاز" يوجه إقبال خطابه إلى العرب في قصيدة: يا ابن الصحراء! يذكرهم أيضاً بماضيهم المجيد فيقول[٣]:

---

(١) يشير إلى الحديث المشهور: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده».

(٢) روائع إقبال للندوي – ص ١١٣ – ١١٤.

(٣) إقبال وديوان «أرمغان حجاز» (مرجع سابق) – ص ٢٢٤ – ٢٢٥.

«حين هبط النور على الصحراء في الأسحار.

يغزو طائر على غصن النخيل.

اقلع خيامك وارحل يا ابن الصحراء.

فلا حياة دون تذوق الرحيل.

جعل الله العرب أدلاء للقوافل.

وامتحنهم بفقرهم.

لو أن فقر الفقراء ذو حمية ،

فمن الممكن أن يقلب الدنيا رأساً على عقب.

في هذه الليالي يكمن عويل صبح الغد ،

لأن هذه الليالي منورة بتجليات سيناء.

الجسد والروح كلاهما محكم بهواء البادية والصحراء.

إن ظهور الأمم يكون بين الجبال والصحراء».

وفي قصيدة «دعاء طارق» من ديوان «بال جبريل»(جناح جبريل) يقول إقبال على لسان طارق بن زياد فاتح الأندلس:

«لقد أكرمت يارب! رعاة الإبل وسكان الوبر – العرب – بنعم فريدة لم يشركهم فيها أحد. لقد أفردتهم بعلم وإيمان جديد وشعار جديد هو أذان الصبح، فقد أفلست الأمم في العلم الصحيح والإيمان القوي والتذوق الرفيع، والدعوة السافرة إلى التوحيد، على حين غفلة من الناس.

أما العرب فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم، وجدة إيمانهم، وسلامة ذوقهم، ودوي أذانهم في السكون المهيمن على العالم، والظلام الحالك.

أعد يارب إلى هذه الأمة المؤمنة الحمية الإيمانية والغضبة المؤمنة.».[١].

إقبال والواقع العربي:

يتألم إقبال لما وصل إليه حال العرب في عهده، وما زالت الأمور تزداد سوءاً، ويمتلكه الحزن لما يرى من فرقة العرب بعد وحدتهم، وجمودهم بعد نشاطهم، وعبوديتهم لغيرهم بعد سؤددهم وعزتهم، فيقول في قصيدته « إلى الأمة العربية» يذكرهم بماضيهم، ويعري لهم واقعهم المر أمام أعينهم، لعلهم يستيقظون، ويثورون لكرامتهم المهدرة ولحريتهم المفقودة[٢]:

«أسفاً على هذا الخمود والجمود أيها العرب!!

ألا ترون أن الأمم الأخرى كيف تقدمت وسبقت؟

أما أنتم فما قدرتم قدر هذه الصحراء التي نشأتم فيها.

وهذه الحرية التي ورثتموها.

كنتم أمة واحدة، أمة الإسلام، فصرتم اليوم أمما.

وكنتم حزباً واحداً، حزب الله، فأصبحتم أحزاباً.

لقد فرقتم جمعكم، ومزقتم شملكم، وانقسمتم على أنفسكم».

ويحذر إقبال العرب من الإفرنج ومكائدهم، وهو العارف الخبير بحيلهم، وأن اتباعهم يقود إلى دمار الأمة والدين والأخلاق، يقول في القصيدة نفسها:

---

(١) روائع إقبال للندوي – ص ١٤٦ – ١٤٧.

(١) المرجع السابق – ص ١١٤ – ١١٥.

«مهلاً أيها الغافلون، إياكم والركون إلى الإفرنج والاعتماد عليهم.

ارفعوا رؤوسكم وانظروا إلى الفتن الكامنة في ثيابهم.

ألا إنه لا حيلة لكم ولا وزن إلا أن تطردوهم من منهلكم، وتذودوهم عن حوضكم.

إن حكمة الغرب قد أسرت الأمم وركَّعتها سليبة حزينة لا تملك شيئاً.

إنها مزقت وحدة العرب واقتسمت تراثهم.

إن العرب لما وقعوا في حبائلهم، تنكر لهم كل شيء، وقسا عليهم هذا الكون، ولم يجدوا من يرثي لهم ويرفق بهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم».

ويختم إقبال قصيدته بكلمة صريحة فيها لطف واعتذار:

«معذرة يا عظماء العرب!

لقد أراد هذا الهندي أن يخاطبكم ويقول لكم كلمة صريحة،

فلا تقولوا أيها الكرام: هندي ونصيحة للعرب؟!!

إنكم كنتم يا معشر العرب أسبق الأمم إلى معرفة حقيقة هذا الدين وإنه لا يتم الاتصال بمحمد ﷺ إلا بالانقطاع عن أبي لهب[1]، وإنه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت.

كذلك لا تتم الفكرة الإسلامية إلا بإنكار القوميات، والوطنيات والفلسفات المادية.

---

(١) أبو لهب: عم الرسول ﷺ واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، لم يسلم وناصب العداء للرسول، ونزلت فيه سورة المسد. وفي كلمة إقبال إشارة إلى ترك القوميات والوطنيات العنصرية.

إن العالم العربي، أيها السادة، لا يتكون ولا يظهر إلى الوجود بالثغور والحدود. وإنما يقوم على أساس هذا الدين الإسلامي، وعلى الصلة بمحمد ﷺ».

وفي ديوان «رسالة المشرق» يعقب إقبال على المنادين بالقومية والعصبية من العرب وغيرهم من الأتراك والأفغان، يقول إقبال[١]:

أيا طفلَ السجايا اسمعْ عتابي ... أإسلامٌ وفخرٌ بانتسابِ؟!
فإن تعتزَّ بالأنسابِ عُرْبٌ ... فإن جزاءَها هجرُ الصحابِ
رأيتك لا تزالُ أسيرَ طينٍ ... إلى تُرْكٍ وأفغانٍ تُرَدُّ
أنا بشرٌ بلا لونٍ وريحٍ ... وللتوران أو للهند بُعْدُ[٢]

ويطلع إقبال على واقع البلاد العربية بنفسه، عندما زارها أثناء المؤتمر الإسلامي في القدس عام ١٩٣١م، واطلع على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية، وكانت الدعوة القومية في بداية ظهورها.

يقول إقبال[٣]: لقد تجولت في بلاد العرب والعجم، فرأيت خلفاء أبي لهب كثيرين تفيض بهم البلاد، والمتشبعين بروح محمد ﷺ كالكبريت الأحمر».

ويقول في قصيدة نظمها في فلسطين:

---

(١) ديوان رسالة المشرق – تعريب عبد الوهاب عزام.

(٢) للتوارن: للترك.

(٣) روائع إقبال – للندوي – ص ١٠٩.

«لا أرى في بلاد العرب تلك اللوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب، ولا في بلاد العجم ذلك السمو الفكري الذي كان يمتاز به العجم.

ولا يزال دجلة والفرات متعطشين إلى بطل من أبطال الإسلام، ولكني لا أرى في قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين»[١].

لقد تغيرت صورة الإسلام في العالم العربي والإسلامي عما كانت عليه ولم يبق إلا صورته، أو هيكل لا روح فيه ولا قلب، يقول إقبال[٢]:

«أين السجدة التي كانت تهتز لها روح الأرض؟

لقد طال عهد المحراب بها، واشتاق إليها المسجد، كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطر.

لم أسمع في مصر ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال في الأمس».

ويقول في بيت آخر[٣]: «لقد فقد المسلم لوعة القلب، وانطفأت نار الحياة فيه، فأصبح ركاماً من تراب».

ويقول أيضاً[٤]:

«ولقد فقد المسلمون سورة الحب الصادق، ونزف منهم دم الحياة، فأصبحوا هيكلاً من عظام، لا روح فيه ولا دم، الصفوف زائغة، والقلوب مضطربة، والسجدة لا لذة فيها، ذلك أن القلب خال من الحنان».

---

(١) المرجع السابق – ص ١٠٩.

(٢) المرجع السابق – ص ١٠٩.

(٣) المرجع السابق – ص ١١٠.

(٤) المرجع السابق.

وفي قصيدة «شكوى» يصور إقبال واقع العالم العربي، بعد أن فقدوا الإيمان ففقدوا بذلك الحياة[١]:

قد هبتِ الأصنامُ بعدَ البِلى ... واستيقظتْ من قبلِ نفخِ الصورِ
والكعبةُ العليا توارى أهلها ... فكأنهمْ موتى بغيرِ نشورِ
وقوافلُ الصحراءِ ضلَّ حداتُها ... وغدتْ منازُلها ظلالَ قبورِ
أنا ما حسدْتُ الكافرينَ وقد غدوا ... في أنعمٍ ومواكبٍ وقصورِ
بلْ مِحنتي ألا أرى في أمتي ... عملاً تقدمُهُ صداقَ الحورِ

ويعيش إقبال أحداث العالم العربي، ويتابع أنباءه، ويتألم لآلامه ويحترق قلبه لمصائبه، ويصور لنا أبو الحسن الندوي إقبالاً في إحدى مراحل حياته فيقول:

«ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠م، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر، وجرحت عواطفه وقلبه، فتحرك ساكنه، وهاج خاطره، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية والإمبراطورية الأوروبية، وأملاه حزنه ووجده قصائد كلها دموع حارة في سبيل المسلمين، وسهام مسمومة في صدور الأوروبيين، وتتجلى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة»[٢].

ومن قصائده في هذه المرحلة «رثاء فاطمة بنت عبد الله» وهي فتاة

---

(١) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي (مرجع سابق) – ص ١١٥.

(٢) روائع إقبال – للندوي – ص ٢٤.

قتلت برصاص الجنود الإيطاليين، بينما كانت توزع الماء بين المجاهدين الليبيين في أرض المعركة، يقول إقبال في هذه القصيدة[١]:

«يا فاطمة أنت مجد الأمة المرحومة،

كل ذرة من جسمك بريئة طاهرة.

كانت هذه السعادة في أن يكون نصيبك يا حورية الصحراء أن تسقي جنود الإسلام؛ جاهدت في سبيل الله من دون سيف ولا درع. ما أشد شوقك إلى الاستشهاد! إن مقدار الشوق يعطي المرء الشجاعة.

يا فاطمة، مع أن عيوني تفيض بالدمع حزناً من أجلك فإن نُواحي ممزوج بلحن الفرح».

- ويوجه إقبال نظره إلى بلاد الشام، ويرى ما تفعله فرنسا المستعمرة في دمشق وغيرها من المدن السورية، ودكها بالقنابل المدمرة، فيقول لأولئك المخدوعين بفرنسا التي سمحت بإنشاء مسجد باريس فيقول[٢]:

يا ناظري لا يخدعَنْكَ فنُّهُ ... للزورِ هذا الحرم المغربُ

وليس هذا حرماً لكنَّه ... عند الفِرَنْج للغرام ملعبُ

قد أخفتِ الإفرنجُ روحَ مَوْثنٍ ... في صورةٍ من حرمٍ تكذبُ

إن الذي شيدَ هذا موثِنا ... دمشقُ من عدوانِهِ تخرُبُ

---

(١) إقبال وديوان - أرمغان حجاز (مرجع سابق) - ص ١١٦ - ١١٧ " نقلاً عن ديوان بانك درا» (صلصلة الجرس)، أو (جرس القافلة)

(٢) ديوان ضرب الكليم - تعريب - د. عزام - ص ٧٤.

وفي بيتين بعنوان « أوروبا وسورية في ديوان «ضرب الكليم[١] يذكر سورية الجريحة، وكيف أن الغرب (بصورة فرنسا) جازى بلاد الشام التي أهدته نبي الرحمة عيسى عليه السلام، بالقمار والميسر والنساء.

يقول إقبال:

أهدتِ الشامُ إلى الغرب نبياً ... هو عفٌّ ومواسٍ وصَبورْ

ومن الغربِ إلى الشامِ هدايا ... من قمارٍ ونساءٍ وخُمورْ

إقبال واليهود وفلسطين:

توفي إقبال عام ١٩٣٨م، فهو لم يشهد حرب فلسطين، ولم ير تسلط اليهود على أوروبا وأمريكا كما رأينا ولا نزال نرى... ولكنه ينظر إلى الحوادث نظر خبير عارف، يقول في قصيدة بعنوان: أوروبا واليهود[٢]:

نظامٌ ومالٌ وعيشٌ رغيدُ ... وظلمةُ صدرٍ كالقلبِ يَغْلي

دخانُ المصانعِ في الغربِ داجٍ ... فَواديهِ ليسَ بأهلِ التجلي

رأيتُ حضارته في احتضارٍ ... تموتُ اعتباطاً وما الموتُ يملي

فليسَ غريباً تولي اليهودِ ... كنائسَهُ بعدَ هذا التولّي

ويؤكد إقبال في قصيدة أخرى بعنوان إلى عرب فلسطين[٣] سيطرة اليهود على أوروبا وأنه لا دواء للعرب لدى لندن أو جنوا... وإنما دواؤهم في ذاتهم، يقول إقبال:

---

(١) المرجع السابق - ١٠٧.

(٢) ديوان ضرب الكليم - تعريب - د. عزام - ص ١٠١.

(٣) المرجع السابق - ١١٣.

لا يـزالُ الـزمـانُ يَصْـلَى بنار ... لم تزلْ في حشاكِ دونَ خمودِ[١]

لا دواءُ بـلـنـدنٍ أو جَـنِـيـوا ... بـوريـدِ الإفـرنجِ كـفُّ اليـهـودِ

ومـن الـرقِّ للشـعـوبِ نجـاةٌ ... قـوةُ الـذاتِ وازدهـارُ الـوجـودِ

ويعايش إقبال قضية فلسطين، وما تتعرض له من تآمر عالمي استعماري مع الصهيونية العالمية لإنشاء الكيان اليهودي في أرض الإسراء والمعراج، ويرى ما يصيب المسلمين في فلسطين على يد الاستعمار الإنكليزي والعصابات اليهودية، من مذابح، فيشارك في المهرجان الخطابي الذي نظمه الشعب المسلم في لاهور في ١٩٢٩/٩/٧م للاحتجاج على ما يجري لأهل فلسطين، فيلقي خطبة مهمة قال فيها:

«إن المسلمين يُستشهدون في فلسطين، وتقتل نساؤهم وأطفالهم وتسفك دماؤهم في القدس التي فيها المسجد الأقصى الذي أسري إليه بالرسول ﷺ، والإسراء حقيقة دينية.

ولقد كانت الدول كلها تستذل اليهود وتضطهدهم، ولم يكونوا يجدون ملجأً سوى الدول الإسلامية، ولم يكتف المسلمون بإيواء اليهود، بل أعطوهم مراتب عليا ووضعوهم في مناصب ممتازة، وأجاد اليهود دراسة اللغة العربية، ووجدوا مكانة ممتازة لدى السلاطين المسلمين، وظل الأتراك يعاملونهم ببالغ تسامح وإكرام.

وموضوع المسجد الأقصى بكامله وقف لله تعالى في الشريعة الإسلامية،

---

(١) يعني أن النار التي سرت في الزمان من تاريخ المسلمين لا تزال في نفس المسلم لم تخمد. (انظر هامش ضرب الكليم – ص ١١٣).

ولا يجوز امتلاكه لأحد إطلاقاً، فدعوى اليهود بامتلاك جزء من المسجد الأقصى باطلة وغير شرعية من ناحية قانونية وتاريخية.

وبعد تفجر الحرب العظمى في سنة ١٩١٤م قرر قادة الإنكليز أن يجمعوا اليهود المتفرقين في العالم في مكان واحد، فقد كانوا أثرياء أفراداً، ولكن حالتهم كانت سيئة جماعة وأمة. ورأى الإنكليز، إسكانهم في وطنهم القديم - على حد زعمهم - ولكن كما يعرف جميع العالم أن اليهودي مجبول على أكل الربا، ولا يستطيع أن يعيش إلا في مكان يجد فيه كثيراً من المستقرضين، ويتمكن من سلخ جلود الناس، وأكل الربا أضعافاً مضاعفة[١]. فلم يكن إسكانهم في فلسطين مفيداً في حقهم نظراً إلى هذا الأمر. ولكن قادة الإنكليز رغم ذلك، استخدموهم لإنجاز أهدافهم الأخرى، ودعموا الحركة الصهيونية لتتقدم وتنمو، فنرى اليوم أثراً من آثار تلك السياسة وذلك أن اليهود يدعون امتلاكهم جزءاً من المسجد الأقصى.

وقد أشعلوا نار الفتنة والفساد بذبح المسلمين ذبح النعاج رجالاً ونساءً وأطفالاً. وقد أعلن المجلس العربي الأعلى بفلسطين، أن نائب الحكومة البريطانية قام بتسليح اليهود ولذلك كثر سفك دماء المسلمين على أيديهم، فالحركة الصهيونية ليست في صالح المسلمين بل إنها على عكس ذلك، تحمل أخطاراً جسيمة وفتناً كبيرة[٢]».

---

(١) الواقع بعد ذلك أن اليهود شكلوا دولة قوية، مدعومة من الغرب كله، لتهدد البلاد العربية جميعاً. وفي عام ١٩٦٧م احتلت بقية فلسطين وسيناء والجولان.

(٢) إقبال والحضارة الغربية (مرجع سابق) - ص ٢٣٣ - ٢٣٤ نقلاً عن كفتار إقبال (حديث إقبال) ترتيب محمد رفيق أفضل، إدارة تحقيقات باكستان، وانشكاه بنجاب لاهور ١٩٧٧م، ص ٩٣ - ٩٤ بتصرف).

ويلبي إقبال دعوة مفتي فلسطين السيد أمين الحسيني لحضور المؤتمر الإسلامي العالمي الذي عقد في القدس عام ١٩٣١م لتوحيد صفوف المسلمين تجاه التآمر الصهيوني الاستعماري على فلسطين. ويصل إلى القدس عن طريق القاهرة صباح السادس من (كانون الأول ١٩٣١م) وينصَّب نائب رئيس المؤتمر الإسلامي، يقول الكاتب أكرم زعيتر، في مقال له نشر في جريدة الشرق الأوسط[١] وهو أحد الحاضرين في المؤتمر:

«ومن واجبي أن أذكر هنا شاعر الإسلام العلامة محمد إقبال نائب رئيس المؤتمر الإسلامي العالمي الذي انعقد في القدس سنة ١٩٣١م، وقد سمعناه ليلة الإسراء في افتتاح المؤتمر يقول: «وعلى كل مسلم، عندما يولد ويسمع كلمة لا إله إلا الله أن يقطع على نفسه العهد على إنقاذ الأقصى، وسمعناه يودع المؤتمر هاتفاً بنا: إن مستقبل الإسلام متوقف على مستقبل العرب، ومستقبل العرب متوقف على وحدة العرب، فإذا تمت وحدتكم العربية علا شأن العرب والمسلمين».

وقال: «يجب علينا جميعاً أن نعرف كل ما لدينا في إنجاز هذا الهدف، فالله سبحانه وتعالى سوف يمنحنا الفوز والنجاح[٢]».

وفي أثناء إقامة إقبال بفلسطين حضر طلاب دار اليتامى في القدس ومثلوا قصة فتح الأندلس، وفي نهاية الحفل طالب الحضور إقبال بأن يسمعهم شيئاً من شعره، فأنشد الأبيات الآتية[٣]:

---

(١) جريدة الشرق الأوسط الثلاثاء ٢٤ ربيع الآخر ١٤٠٢هـ (١٩٨٥/١/١٥) المقال بعنوان ذكرى القائد العظيم.

(٢) انظر أيضاً سفر نامة إقبال (رحلة إقبال) محمد حمزة فاروقي، مكتبة معيار، كراتشي ١٩٧٣م.

(٣) المرجع السابق – ص ١٧٧ – وديوان رسالة المشرق – تعريب عزام ص ٦٤.

طارقٌ أحرق السفينَ فقالوا: ليسَ هذا من فعلهِ برشيدِ
غرباءُ ومَنْ لنا برجوعٍ ذا خطارٌ في الشرعِ غيرُ سديدِ
أمسكَ السيفَ طارقٌ في ابتسامٍ قائلاً واثقاً بعزمٍ شديدِ
مُلْكُنا اليومَ خالصٌ كلُّ مُلْكٍ إنهُ ملكُ ربِّنا المعبودِ

وبينما كان إقبال في أرض فلسطين، تحركت عواطفه، وهاجت قريحته، فنظم قصيدة «ذوق وشوق»[١] التي يحلل فيها ببراعة وجمال، ضعف العالم الإسلامي، وما ذلك إلا لضعف العقيدة والإيمان في القلوب والنفوس، وضعف العاطفة والحب الذي هو مصدر الثورات والبطولات، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ويقول:

«لابد أن يعيش العقل والعلم والقلب في حضانة الحب وإشرافه وتوجيهه، ولابد أن تسند الدين وتغذيه عاطفة قوية، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون[٢]. وكأن إقبالاً في هذه القصيدة يقول: «إن واقع العالم العربي والإسلامي المؤلم هذا هو الذي يصيب المسلمين اليوم على يد اليهود والمستعمرين».

وقد رجع إقبال من زيارته لفلسطين ومصر حزيناً، ولخص رحلته في بيتين من الشعر قال فيهما: «لم أسمع في مصر ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتجفت له الجبال بالأمس، أين السجدة التي كانت تهتز لها روح الأرض؟

(١) ضمنها ديوانه " بال جبريل: (جناح جبريل).

(٢) روائع إقبال للندوي - ص ١٣١ - ١٣٢.

لقد طال عهد المحراب بها، واشتاق إليها المسجد، كما تشتاق الأرض الجدبة الخاشعة للمطر»[١].

وبعد رجوع إقبال إلى لاهور أصدر بياناً في مجلة (سيفل آند مليتري جازيت) قال فيه: «إن رحلة فلسطين سوف تبقى خالدة في تاريخ حياتي، ففي أثنائها اجتمعت مع ممثلي الدول الإسلامية، ولقد تأثرت كثيراً بشباب سورية، فقد رأيت فيهم نوعاً من التدين والتحمس لم أر مثله إلا في شباب إيطاليا الفاشيين»[٢].

وحتى السنين الأخيرة من حياته بقي إقبال يهتم بقضية فلسطين.

وقبل أقل من عام واحد من وفاته ألقى إقبال خطاباً في الاجتماع الذي نظمته رابطة المسلمين بمنطقة البنجاب (١٩٣٧/٧/٢٧م) ضد قرار تقسيم فلسطين قال فيه:

«ومن الواجب أن يتنبّه العرب بأنهم لا يستطيعون الاعتماد على توجيه أولئك القادة الذين لا يملكون الكفاءة والقدرة للوصول إلى رأي حول قضية فلسطين بحرية فكر واستقلال ضمير، فكل ما يقرره العرب لابد أن يقرروه معتمدين على أنفسهم بعد دراسة كاملة للمشكلة التي يواجهونها[٣]».

وكان إقبال يستشعر مدى خطورة زرع الكيان اليهودي الصهيوني في البلاد الإسلامية (قبل أن تعلن الدولة الصهيونية بعشر سنوات) فقد كتب مرة إلى القائد محمد علي جناح يقول:

---

(١) مذكرات سائح للندوي – ص ٣١١.

(٢) إقبال والحضارة الغربية – ص ٨٥ (مرجع سابق) نقلاً عن: إقبال داناي للسيد الأعظمي.

(٣) المرجع السابق – ص ٢٣٧.

«إن لمشكلة فلسطين أثراً كبيراً في نفوس المسلمين، وإنني شخصياً لمستعد أن أذهب إلى السجن لأمرٍ له تأثير على الإسلام والهند، فإن وجود مركز غربي على بوّابة الشرق خطيرٌ للغاية»[١].

ولكن صيحات المخلصين من أمثال محمد إقبال ذهبت سدى، لأن التآمر الدولي اليهودي والصليبي كان أكبر من ذلك بكثير... ونتيجة للذل الذي ضرب على المسلمين، استيقظ العرب والمسلمون على إعلان الدولة اليهودية عام ١٩٤٨م، واعترفت بها الدول الكبرى وفي مقدمتها: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي (السابق).

إقبال والاستعمار الغربي:

يتألم إقبال وهو الشاعر المسلم من سيطرة الاستعمار الغربي عسكرياً وثقافياً على البلاد العربية، بعد أن قسّمت بين بريطانيا وفرنسا في معاهدة " سايكس - بيكو " عام ١٩١٦م، يقول:

«إن نفوذ الأجانب في جزيرة العرب والأقطار العربية وسيطرتهم السياسية على كثير من أجزائها حقيقة مؤلمة يفزع لها كل مسلم»[٢].

والاستعمار الغربي، والصليبية العالمية من ورائه، ما زال شبح الحروب الصليبية يلاحقه ويطالبه بالانتقام من المسلمين، يقول الدكتور سيد عبد الله الذي هو من أبرز شراح فكر إقبال في باكستان:

«إنني لا أنكر أن الاستعمار الغربي يستهدف استغلال ثروات الشرق، ولكني أراه أكثر من ذلك». في ضوء فكر إقبال الإجمالي، إنه انتقام صليبي

(١) المرجع السابق – ص ٢٣٨ نقلاً عن إقبال سب كي لئى للدكتور فرمان فتحبوري، ص ١٧٤.

(٢) روائع إقبال للندوي - ص١٣٩، ١٤٠.

ورد فعل انهزام الغرب أمام انتصارات المسلمين في الأندلس، وعلى يد صلاح الدين الأيوبي، وعلى يد آل عثمان الأتراك، وكان هدف أهل الغرب أخيراً تدمير القوة العثمانية، متأثرين بالنزعة الانتقامية الصليبية، وقد قضوا في سبيل إتمام هذا الهدف حوالي ثلاثة قرون. فالذين يرون هذا الكفاح الغربي الطويل ناتجاً عن هوس أهل الغرب الاستعماري والاقتصادي فقط فهم يقرون بنصف الحقيقة، وذلك لانخداعه بدعاية الغرب الكاذبة، وقد يظن بعض السذج أن الغرب الذي قد ترك الدين مهجوراً ولم يعد يؤمن بالله والرسالة والروحانية مطلقاً لا يمكن أن يفكر في انتقام صليبي أو يتأثر بنزعة دينية، ولكن ذلك الظن ناتج عن نقص في الفهم وغفلة عن الحق، فإن الصليب والكنيسة كامنة في قلب كل مستعمر سواء كان ديمقراطياً أو اشتراكياً، وكان ذلك قصد إقبال حين أنشد:

«أيها الغافل، لماذا ترجو العطف والحنان من الفرنجي الغاصب؟

ألا تدري أن قلب الصقر لا يرق لطائر يقع في مخلبه».[١]

والتآمر الاستعماري الصليبي على العالم العربي والعالم الإسلامي يسير في طريقين متوازيين مدروسين بدقة متناهية وبتخطيط محكم.

الطريق الأول: يتمثل بزرع الفرقة بين المسلمين عن طريق المناداة بالقومية والعصبية العرقية أو الإقليمية... وقد وجد الغرب استجابة بين المسلمين، فأوجد الصراع بين الدين والقومية.

يقول إقبال على لسان جمال الدين الأفغاني: «إن الأوروبي هو الذي

---

(١) إقبال والحضارة الغربية (مرجع سابق) – ص ٢٢٥ نقلاً عن مقاصد إقبال للدكتور سيد عبد الله، والناشر علمي كتاب خانة لاهور، ط ١٩٨١، ص ٢٠.

علـم أهل الدين الوطنية والقومية، أما هو فلا يزال يبحث عن مركز لجمع الشـعوب والأوطان، ولكنه بذر في الشـرق بذور الخلاف والانشقاق، وشغل شعوبه بمصر والشام والعراق، فتحرَّرْ أيها المسلم الشرقي من قيود الوطنية والقومية».[١]

الطريـق الثاني: الذي سـار فيه الاسـتعمار الغربي للقضـاء على الأمة الإسـلامية، وعقيدتها وثقافتها هو طريـق التربية والتعليم، يقول إقبال في قصيدة عنوانها، وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين:

«إن المجاهـد هو الذي يصـبر على الجوع، ولا يحسـب للموت حسـاباً، أخرجوا روح محمد من جسـمه، فيصـبح قليل الصبر، جزوعاً من الفقر، شـديد الخوف من الموت، وأشـغلوا العرب بالأفكار الغربيـة، وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الديني فتمكنوا بذلك من إجلاء الإسـلام من الحجاز واليمن. إن في الأفغان غيرة دينية، وعلاجها أن يقصـى العالم الديني من جبالها وسهولها».[٢]

«وكان مـن أقرب الطرق للوصـول إلى هـذا الهدف هـو التعليم، الذي يجرد الشـباب من الروح الدينية والعواطف والعقلية الإسـلامية، وينشـئ فيه طبيعة النفعيـة والأبيقورية، وطبيعة التهام الحياة، وانتهاب المسـرات وتقديس المادة ورجالها، وعدم الاسـتقامة الخلقية، وضعف الثقة بالنفس، والشك في الدين».[٣]

---

(١) روائع إقبال للندوي – ص ١٦٨ نقلاً عن ديوان جاويد نامة.

(٢) روائع إقبال للندوي – ص ١٠٨ نقلاً عن أرمغان حجاز (هدية الحجاز) قصيدة برلمان إبليس.

(٣) المرجع السابق – ص ١٠٨.

ويحذر إقبالٌ المسلم من التعليم الغربي الذي اكتوى هو بناره في دراسته في أوروبا فيقول: «إياك أن تكون آمناً من العلم الذي تدرسه فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها».

ويقول: «إن نظام التعليم الغربي إنما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة»[١].

وذهبت كلمات إقبال وتحذيراته صيحة في واد، ونجح الغرب في غزوه الفكري والثقافي والعقدي للأمة الإسلامية، وأثرت الثقافة الغربية في عقول الشباب الإسلامي.

ويقول في قصيدة شكوى: «لقد تجولت في ربوع العالم الإسلامي، وزرت بلاد العرب والعجم، فرأيت من يقتدي بك ويجدد ذكراك مفقوداً، لا يقع عليه العيان، ورأيت من يمثل أبا لهب ويحكيه، كثيراً في كل مكان، إن الشباب الإسلامي قد استنارت عقولهم، وأظلمت قلوبهم وضمائرهم، وإنهم في شبابهم، ناعمون رقاق كالحرير.

إن نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النزعة الدينية حتى أصبحوا خبر كان، إنهم هاموا بالغرب وجهلوا قيمهم.

إن نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة، وصاغته صوغاً جديداً، فأصبح في هذا الجحيم ممسوخاً منكوساً، وأصبح المسلم لا يعرف سر الموت ولذته، ولا يؤمن كما كان يؤمن في القديم بأنه لا غالب إلا الله. لقد مات قلبه بين جوانحه، فأصبح لا يفكر إلا في المنام والطعام، إنه حكَّم الغرب في نفسه ليتلقى منه رغيفاً، وقبل منه منَّة إحسان من أجل بطن

(١) المرجع السابق - ص٧٦، ٧٧ .

واحد، إن محطم الأصنام وسليل إبراهيم قد أصبح آزر ينحت الأصنام، إنه يشتري من الإفرنج أصنامهم الجديدة.

لقد سحرتنا الحضارة الغربية، واستطاع الغربيون أن يقتلونا من غير حرب وضرب»[١]

ومع كل هذا التآمر الصليبي اليهودي على العالم الإسلامي، فإن إقبالاً لم يفقد الأمل في طلوع فجر الإسلام من جديد ليبدد الظلام، ويقهر الأعداء ويعيد للأمة الإسلامية مجدها القديم، يقول في قصيدة بعنوان طلوع الإسلام: «إذا رأيت النجوم شاحبة منكدرة تخفق فاعلم أن الفجر قريب، ها هي الشمس قد ذر قرنها من الأفق وولى الليل على أدباره، إن عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام فإنما تتكون اللآلئ في البحر المتلاطم، الهائج الأمواج، لقد دب دبيب الحياة في الشرق، وجرى الدم الغائر في عروقه الميتة، وذلك سر لا يفهمه ابن سينا والفارابي، إن المسلم سيمنح من الله الأبهة التركية، والذكاء الهندي، والنطق العربي».

ويقول في بيت: «إن إقبالاً ليس يائساً من تربته الحقيرة، فإنها إذا سقيت أتت بحاصل كبير».[٢]

(١) المرجع السابق – ص ١٨٨ – ١٨٩ بتصرف.

(٢) المرجع السابق – ص ١١١.